الأديب سليمان فياض يعيد رسم الوجه الحقيقي للخلافة الإسلامية

خلافات القهر التي لا يحكي عنها المؤرخون تفسر حال العرب اليوم

الوجه الآخر لخلافات القهر (لوحة للفنانة غلناز فتحي)

ممدوح فراج النابي
كاتب مصري

ربما الأدباء ليسوا مؤرخين، وقد تغيب عنهم منهجية التأريخ، لكنهم في النهاية الأقدر على كشف الوجه المجهول من التاريخ كلما تناولوه. يكشفون ما يسكت عنه المؤرخون، ويحللون الظواهر التي ينقلونها في شكل سردي يجعل من التواريخ والأحداث الجافة والحاسمة فرصة للتفكير. وهكذا كان الكاتب المصري سليمان فياض الذي أرخ لأهم الفترات الإسلامية بشكل مختلف.

الكاتب المصري سليمان فياض (1929 – 2015)، هو واحد من جيل الستينات، يتميز عن مجايليه بأنه صاحب الوجوه المتعددة؛ فهو روائي حاذق قدّم إلى المكتبة العربية روائع الكتابات الروائية مثل: رواية "أصوات"، و"القرين ولا أحد"، و"أيام مجاور"، وأيضًا هو قصاصٌ من طراز فريد؛ فله مجموعات قصصية غاية في الروعة والجمال؛ مثل "عطشان يا صبايا"، و"بعدنا الطوفان"، و"أحزان حزيران"، و"العيون"، و"زمن الصمت والضباب"، و"الصورة والظل" (1976)، و"ذات العيون العسلية" (1992). وهناك وجه الإذاعي الذي قدم الكثير من البرامج والمسلسلات في الإذاعة.

لكن يبقى لسليمان فياض وجه بالغ الأهمية يتمثّل في صورة المؤرخ، وقدم عبر هذه الصفة كتابات لأعلام العرب كابن النفيس وابن الهيثم وابن بطوطة والبيروني وجابر بن حيان وغيرهم، وهي جميعها إسهامات مهمّة في حقل التعريف بأعلام العرب. ومن صفة الباحث التاريخي أو المؤرخ كتب سليمان فيّاض كتابه البالغ الأهمية "الوجه الآخر للخلافة الإسلامية"، وقد صدر الكتاب أوّل مرة عن دار ميريت عام 1999، ثم أعيد طبعه مؤخرًا عن ذات الدار إلى جانب الأعمال الكاملة لسليمان فياض في مجلدات فخمة وأنيقة.

كشف الزيف

الكتاب لا تكمن أهميته في أنه بمثابة إعادة قراءة دقيقة وفاحصة لمفهوم الخلافة الإسلامية، وتفكيك كافة الأقانيم التي قيلت في التأكيد على وجودها التاريخي، أو حتى صلاحيتها فقط، وإنما تتمثل أهمية الكتاب أيضا في أنه كان بمثابة قراءة مستقبلية للواقع الآني، بعد دخول العالم العربي في مستنقع الجماعات الإرهابية والدعوة إلى عودة الخلافة من جديد. كما أنه يضعها في إطارها الحقيقي، حيث يعتبرها فعلا دنيويًا، أو فعلا بشريًا استغل الدين لتحقيق مآرب شخصية للانتقام من الخصوم.

يُقدّم الكتاب جذور الإرهاب الفكري، الذي صاحب فكرة استبداد الحكم. وكأنه يربط بين التكفير والقهر واستبداد السلطة السياسية في صورة الاستحواذ بالحكم عبر آلية الخلافة، وما تنص عليه من إذعان وخضوع الرعية للإمام، الذي يكتسب صفات إلهية عند بعض المذاهب.

يرى فياض بصورة مجملة أن معظم الخلافات التي قامت سواء أكانت أموية أو هاشمية أو عثمانية / تركية، جميعها كانت خلافات قهر إمبراطورية، خلافات يضع خلفاؤها على وجوههم أقنعة الدين، حيث كانوا يستخدمون شعارات الدين لإخضاع البلاد والعباد. ومع الأسف يهدمون مقاصد الدين، كالعدل وحرية الاعتقاد والأمن والتكافل الاجتماعي والإخاء والمساواة، واستقلال بيت مال المسلمين عن بيوت أموال الحاكمين.

ومع سقوط الخلافة الرابعة (الخلافة العثمانية) سقط بسقوطها نظام الدولة الدينيّة والمدينة معًا. وإن كان يشيد فياض بالتيار الإسلامي المدني الذي كان سدًا أمام محاولات العودة إلى النظام الخلافي في العقد الخامس من القرن العشرين. وإن كانت هذه المحاولات قد عادت من جديد في ظل تبني هذه التيارات شعارات ترفع راية الجهاد، وتكفّر النظم الإسلامية المدنية، وهو ما يدخلها في زمرة التنظيمات الإرهابية.

يسعى فيّاض في كتابه إلى تقديم صورة كاملة (حقيقية) عن عصور الخلافة، لا تلك التي راجت عنها في الكتابات المدرسية، خاصة ازدهاراتها وفتوحاتها العظيمة، وحركة تجارتها الداخلية والخارجية، والتطوّر العلمي، مع تجاهل كامل لمثالب هذه الخلافات، وصور قهرها لشعوبها، وما تعرض له الفقهاء والعلماء والكتاب من محن. ومن ثم آل على نفسه أن يستل من كتب المؤرخين المسلمين القدامى والمحدثين، ومن تحليلاتهم، صور الوجه الآخر لخلافات القهر، أو حسب وصفه الوجه القبيح.

يأخذنا فياض عبر صفحات الكتاب في رحلة تاريخية يغلب عليها الطابع الأدبي وهو يقص بدايات الخلاف والاحتراب بين المسلمين منذ ولاية عثمان، وبداية الخلافة بعد مقتل علي بن أبي طالب، واصفًا الألاعيب السياسية والحيل والمناورات التي برّرها الخلفاء تارة بالذهب وتارة بالسيف لترهيب من يقف ضد رغباتهم في توطيد دعائم ملكهم. كما يرصد تطور نظام الخلافة في الدولة العباسية إلى نظام مماثل لنظام الفرس السياسي، الذي يرفع شعار الحق الملكي المقدس.

المثقف والسلطة

ويربط فياض بين الخوارج على اعتبار أنهم إرهابيو زمانهم، وبين تنظيمات الجماعات الإسلامية كإرهابيي زماننا. حيث كانوا يمارسون إرهابًا فكريًا واغتيالات وحروبًا أحيانًا يكسبونها مؤقتًا، ويخسرونها دائمًا ضدّ غير المسلمين وضدّ المسلمين الذين لا يشايعونهم. وكأنه يردّ بأن سبب أزمتنا في هؤلاء أحادي الرؤية، ومتعصبي الفكر، لا فرق بين الماضي والحاضر، فهم حاضرون في كل زمان، ما دام المناخ صالحًا لوجودهم وترويج أفكارهم. والأهم وجود الموالين الذين يسعون إلى نشر هذه الأفكار والدفاع عنها ولو بالسلاح.

ومن ثم يتوقف عند المحن التي حاصرت الأئمة الأربعة سواء من الخوارج أو من السلطة، في إشارة إلى حالة التعسُّف التي مارستها السلطة ضدهم، لرفضهم المداهنة، ولأنهم لا يؤكدون ولاءهم لها.

ويتطرق إلى الحالة الاقتصادية والاجتماعية في خلافات القهر، وكيف عمل هؤلاء الخلفاء على جمع المال من بيت مال المسلمين، لحساباتهم الشخصية، فأقاموا الحُجب على أبوابهم كما فعل معاوية، وعزلوا أنفسهم عن الناس حتى في الصلاة كما فعل معاوية بأن جعل له مقصورة خاصة به في المسجد لصلاته، يحرسها سيوف وحرّاس وقوفا أثناء صلاته. ويتحدث عن حالة البذخ في قصورهم التي ازدانت جدرانها بالفسيفساء، وأعمدتها من رخام مذهب، وما يرتدونه من أصواف، وما استحلوه لأنفسهم من رياضات للتسلية كسباقات الخيل والصيد. وبالمثل انغمس العباسيون في الترف والبذخ وأخذوا نظام مجالس الفرس في الغناء والطرب.

> الكاتب يأخذنا في رحلة تاريخية يغلب عليها الطابع الأدبي وهو يقص بدايات الخلاف والاحتراب بين المسلمين

كما يكشف عن ثروات الكثير من الخلفاء، وما يدخل في باب العجب أن من عرف حياة الترف وحب الظهور صحابيون أجلاء كالزبير بن العوام، وطلحة بن عبدالله وعبدالرحمن بن عوف.

ويعدد مثالب خلافات القهر كما يسميها، بانتشار الفتن والخلافات في جميع الأمصار، وحدوث الانقسامات بين الفرق الدينيّة، كما أن معارضي الخلافات الأموية لم يكونوا بأحسن منها، فكانت لهم مطامع يطلبونها ويريدونها، وتكون مثل خلافات وراثية إمامية.

كما يسرد ما تعرض له أئمة الإسلام من اضطهاد الفرق لهم وأيضًا خلفاء القهر، كاشفًا عن حقب مأساوية سواء على مستوى الحكم الذي فقدت فيه الشورى معناها، وكذلك العدل، وأيضًا على المستوى الاقتصادي، حيث عاش هؤلاء الخلفاء وأعوانهم في حالة من البذخ والترف، في حين حرم الشعب الذين هم ولاة أمره وأئمته من حقه في بيت المال ومغانم الحرب.

بقدر ما يكشف الكتاب عن الوجه القبيح للخلافة، فإنه في الوقت ذاته يشيد بما تحمّله البعض من العلماء والأدباء، وقفوا في وجه الخلفاء المستبدين، سواء بمخالفة آرائهم أو بتوجيه النصح لهم كما فعل ابن المقفع في رسالته، وانتهى به الحال مقتولاً. إلا أن دلالة ذلك خطيرة، في الاعتداد بدور المثقف ووقوفه دائمًا إلى يسار السلطة يقوّم معوجها، حتى لو كان في ذلك هلاكه. وهو الدور المفتقد حاليًا، فقد صار المثقف والنخبة ترسًا يدور في آلة السلطة، حتى لو كانت قامعة لمعارضيها، بل يبرّر لها فعلها، ويزيّنه، في صورة نقيضة لدور المثقف الحقيقي.

الكاتب منتحرا

حسن الوزاني
كاتب مغربي

يُعيد إقدام الشاعر الكردي العراقي محمد عمر عثمان على وضع حد لحياته، قبل أيام، موضوعَ الانتحار إلى الواجهة. وإذا كان العالم يشهد حالة انتحار كل أربعين ثانية، فإن الأمر يبدو مختلفا حينما يتعلق بشاعر، يُفترض فيه أن يكون أمينا على الحياة وعلى جمالها. وإن كان الشاعر يبدو الأقرب، في نفس الوقت، إلى لعبة الانتحار. ذلك لأن القصيدة يمكن أن تقيم عند الحدود الهشة الفاصلة بين الحياة والموت وبين الفرح والضيم وبين الشيء ونقيضه.

ولا تشكل حالة محمد عمر عثمان الأولى ولا الأخيرة. بل إن ظاهرة انتحار الكُتاب تمثل عنصرا مشتركا عابرا لكل اللحظات ولكل الجغرافيات الثقافية الإنسانية. ففي كثير من اللحظات، هناك من يتطوع لمفاجأة محيطه وقرائه مخلفا وراءه أكثر من سؤال.

قبل سنوات، اختار الشاعر اللبناني خليل حاوي وضع حد لحياته بإطلاق النار على نفسه احتجاجا، فيما يبدو، على الاجتياح الإسرائيلي للبنان، خلال بداية ثمانينات القرن الماضي. وقريبا من هذه الحالة، يمكن استحضار انتحار الشاعر الأردني تيسير السبول الذي كان قد حاز على جائزة مجلة شعر، التي كان وراء إطلاقها الشاعر خليل حاوي. أما المشترك بينهما فهو الاحتجاج على السياق العربي المحبط.

في الضفة الأخرى، سيختار الكاتب الأميركي إرنست همنغواي، الحائز على جائزة نوبل للآداب وصاحب رواية "الشيخ والبحر" الشهيرة، وضع حد لحياته في سياق مختلف أشبه بانتحار جماعي درامي. إذ طال نفس المآل عددا من أفراد عائلته. ويتعلق الأمر بوالده، وأخته الفنانة التشكيلية أرسولا همنغواي، وأخيه الكاتب ليبستر همنغواي، صاحب كتاب "همنغواي، أخي"، بالإضافة إلى حفيدته الممثلة وعارضة الأزياء مارغو همنغواي. بينما ستُنقذ أزمة قلبية مميتة جاك همنغواي، الابن الثاني لإرنست همنغواي، من مآل الانتحار الدرامي، حيث سيتوفى فوق سرير المرض، بعد أن أصدر كتابه "باريس حفلة"، الذي يستعيد فيه حياة والده بمدينة باريس خلال عشرينات القرن الماضي.

أما ابن همنغواي الثالث، غريغوري همنغواي، الطبيب والكاتب، فستنتهي حياته داخل مركز لاعتقال النساء، حيث كان يقضي عقوبة، بعد أن اختار حياة مختلفة، مفضلا التحول إلى امرأة، متنازلا عن ظل أبيه وعن اسمه لصالح اسم نسائي جديد وهو غلوريا. حفيدة إرنست همنغواي، الممثلة ماريل، ستطلق حملة، على مستوى الولايات المتحدة الأميركية، للتنبيه إلى خطورة ارتفاع نسبة الانتحار بالبلد. كما ستشارك في الفيلم الأميركي "نادي الانتحار". وكانت تلك طريقتها للتخلص من لعنة ظلت تلحق عائلة بكاملها.

وبمعزل عن هذه الحالة، يضرب الانتحار صفوف الكُتاب، سواء المتوَّجون منهم أو الذين بدأوا للتو مسارهم الإبداعي. وفي الحالة الأخيرة، يصير الانتحار مضاعفا، لأنه قد يقتل تجربة إبداعية لم تبدأ أو لم تنضج بعد. ولعل ذلك حال الشاعر الكردي العراقي محمد عمر عثمان، الذي كان قد أصدر ديوانه الوحيد "في الغربة"، والشاعرة الجزائرية صافية كتو، التي اختارت أن تلقي نفسها بشكل درامي من أحد جسور مدينة الجزائر، مخلفة مجموعتها الشعرية الوحيدة "صديقتي القيتارة"، بالإضافة إلى مجموعة قصصية. أما الشاعر المغربي كريم حوماري، الذي وضع حدا لحياته، خلال نهاية تسعينات القرن الماضي، فلم يُكتب له أن يرى ديوانه الأول مطبوعا، وهو "تقاسيم على آلة الجنون"، حيث سيصدر بعد رحليه.

ورغم خصوصية ظاهرة الانتحار، خصوصا في صفوف الكتاب والمثقفين، تندر الدراسات والكتابات العربية التي تخص الظاهرة. ولعل من أهمها كتاب "انتحار المثقفين العرب وقضايا راهنة في الثقافة العربية" لمحمد جابر الأنصاري، الذي يسعى، كما جاء في تقديم الكتاب، إلى "البحث في النزعات الانتحارية لدى المبدعين والمثقفين باعتبارهم أكثر الشرائح ميلاً للانتحار"، مشبها إياهم بالرهبان البوذيين الذين يشعلون النار في أنفسهم للاحتجاج على الظلم أو للتنبيه إلى قضية عادلة. بينما ستعود الشاعرة اللبنانية جمانة حداد إلى موضوع انتحار الشعراء عبر عملها الأنطولوجي "سيجيء الموت وستكون له عيناك"، الذي يخص مئة وخمسين شاعراً انتحروا في القرن العشرين.

في مقابل ذلك، تتواصل في الضفة الأخرى سلسلة الأعمال اللامتناهية والتي تعود إلى تجارب الكتاب المنتحرين، بهدف إضاءة المناطق الخفية التي قد تكون وراء انطفائهم.

في كتابهما المشترك، "الحياة المزدوجة لفيرجينا وولف"، تعود الباحثتان الفرنسيتان جُنفيف بريساك وأغنيس ديسارت، إلى وولف الكاتبة والإنسانة، بغية تقريب القارئ من قوتها كامرأة، وأيضا كأحد الأسماء التي رسمت مشهد الكتابة البريطانية، قبل أن تنهي حياتها، حيث أغرقت نفسها في نهر الأوس القريب من بيتها.

> رغم خصوصية ظاهرة الانتحار، خصوصا في صفوف الكتاب والمثقفين، تندر الدراسات والكتابات العربية التي تخص الظاهرة

في نفس السياق، ستعود الباحثة الفرنسية دومنيك فريشر، عبر كتابها "ستيفان تسفايغ: تشريح انتحار"، إلى إعادة رسم سيرة الكاتب النمساوي ذي الأصول اليهودية ستيفان تسفايغ، الذي قضى حياته هاربا من النازية، ليلجأ في نهاية المطاف إلى البرازيل، حيث أنهى حياته رفقة زوجته. بينما ستكون الأيام الأخيرة لستيفان تسفايغ موضوعا للفيلم الشهير "وداعا أوروبا"، الذي أخرجته، قبل ثلاث سنوات، المخرجة الألمانية مارية شرادر.

أما الكاتب الفرنسي إدوار ليفي فقد اختار أن يصدر كتابه "الانتحار"، وهو في حدود العشرين صفحة فقط، حيث يعود إلى الموضوع بطريقة مختلفة؛ إذ فضل أن يكون النص أشبه برسالة مفتوحة إلى صديق مفترض أقدم على الانتحار.

في حوار كنت قد أجريته، قبل سنوات، مع الشاعر البرتغالي كازيميرو دي بريتو، اخترت أن أسأله في نهايته عن حضور موضوع الموت في نصوصه الأخيرة، فكان جوابه: "سأقول لك أمرا مهما، لم يسبق لي أن صرحت به لأحد. لدي إحساس بأن ما يربطني بهذا الوجود هو أمي، التي تقضي أيامها الأخيرة بدار العجزة، وبرحيلها سأكون مستعدا لإنهاء حياتي". توفيت الوالدة، غير أن دي بريتو مازال شاعرا نشيطا في الثمانينات من عمره. إنها الرغبة في الحياة التي تنتصر على ثيمة الموت التي تحفل بها نصوص الشعراء.

محمد عمر عثمان آخر الشعراء الراحلين